مجمع اللغة العربيّة في رحلته مع التراث

د. نزار أباظة

مجمع اللغة العربية- سوريا

الحديث عن التراث وأخباره حديث شائق ذو شجون، خصوصاً إن كان من خلال مؤسسة عريقة كمجمع اللغة العربية الذي دأب منذ تأسيسه عام 1919 على رعاية اللغة العربية والحفاظ عليها، فكانت له وظائف جلى أهمها ربط حاضر الأمة بغابرها من خلال وضع المصطلحات العربية لألفاظ الحضارة الحديثة، وتصحيح الأخطاء الشائعة على الألسن.

وأسبقية مجمع دمشق من بين المجامع العربية معروفة في هذا المجال غنية عن التعريف، سارع منذ قيام الدولة العربية في دمشق بعد انسحاب الأتراك إلى تعريب ما تحتاج الأمة إلى تعريبه في المجالات كلها فاضطلع بالمهمة على أحسن وجه.

ورأى من أولى مهامه رعاية كتب السلف وإخراجها من الظلمات إلى النور إخراجاً يعتز به كل باحث ويحرص عليه كل دارس ويتلهف إليه ذوو العلم والفضل الذين لا يزالون يتصلون بالمجمع من الشرق والغرب يتتبعون أعماله ويقتنون كتبه وإنتاجاته التي تربو يوماً بعد يوم.

وتراثنا العظيم الذي حفظت الأيام أقساماً منه قد تكون ضئيلة بالنسبة لحقيقته وحجمه ونوعه وبالنسبة لعظمة حضارتنا وأصالتها يحتاج إلى عناية فائقة وأياد خبيرة ذات دربة، فإنه لا يقتدر على التعامل معه كل من أحب ولا كل من رغب.. ومن كالمجمع في هذا المضمار؟ أنه جمع فأوعى، حفظ الأمانة وقام بالواجب المنوط به خير قيام وحقق الآمال المتعلقة به أحسن تحقيق.

وليس الكتاب الذي يطرحه المجمع بين الأيدي إلا ثمرة جهود طويلة متصلة لا تهدأ ونتيجة تعب مستمر لا يتوقف وخبرة أتى عليها حين من الدهر قد استحكم نابها واشتد عودها وقوي ساعدها.. فالمجمع لا يرضى عن الكتاب الذي ينشره إلا بعد تمحيص وتحقيق ولا يعجبه أن يمهره بخاتمه وشعاره إلا بعد لأي ومناقشة، مناقشة علمية مجمعية، فكان من الطبيعي أن تخصص من بين اللجان العديدة لجنة للتراث عرفت باسم (لجنة المخطوطات وإحياء التراث وهي ذات صلة وشيجة بلجنة أخرى قد تكون متممة لها هي (لجنة المطبوعات).

تتلقف لجنة المخطوطات وإحياء التراث ما يحال إليها من كتب محققة محلية يسعى بها أصحابها أو وافدة مع البريد من المشرق والمغرب. ومن خلال اجتماعات اللجنة يناقش الكتاب مناقشة متأنية ذات خط ومنهج فيقبل أو يرفض.. وقد يطلب من المحقق صورة عن أصل الكتاب المخطوط وقد يفرض عليه أن يعدل قسماً أو يستكمل شيئاً أو يطيل في مقدمته أو يختصر منها بحسب المقال ولكل مقام مقال.

والفكرة التي تستحوذ على القائمين بأمر المجمع عموماً، وعلى لجنة المخطوطات وإحياء التراث خصوصاً نقاوة العمل وجزالته وموافقته للروح المجمعية وللطريق الذي يسلكه المجمع كما أشرت آنفاً، وليس يضر بهذا أنه كان وراء بعض ما قبلته اللجنة رغبة في فتح الطريق أمام جيل جديد من المحققين ربما يكون له روح مختلفة ونسغ جديد.

نعرض فيما يأتي بعض ما أنتجه المجمع إذ لا يسعنا في مقال واحد أن نستوعب أعمالاً جليلة تمت خلال سنين طويلة وإنما هي صورة حديثة قد تعطي فكرة مجملة.

أول ما يمكن أن نتناوله بالحديث عن الإنتاجات التراثية المجمعية هو تاريخ مدينة دمشق[1] للحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، ذلك التاريخ الذي دأب المجمع على تحقيقه وإخراجه منذ سنوات فأصدر أجزاء منه هي المجلدة الأولى وتتحدث عن فضائل دمشق وأصل اشتقاق تسمية الشام وتاريخ بناء هذه المدينة التاريخية ومعرفة من بناها والأحاديث الواردة فيها وأخبار ملوكها قبل الإسلام والسرايا التي أرسلها النبي إلى هاتيك النواحي ثم صدر القسم الأول من المجلدة الثانية ويضم خطط دمشق فيصف مسجدها الجامع ومساجدها الأخرى وأبوابها وقلعتها ومدارسها وميادينها وأسواقها وحماماتها وأنهارها وقنيها وطواحينها وبساتينها وكنائسها وأديرتها والقرى من حولها.

وقفز الكتاب مرة واحدة فخرج للناس منه المجلدة العاشرة التي تضم التراجم المبدوءة بحرف الباء والتاء والثاء، ثم قفز قفزة أخرى فطلع علينا

جزء يضم تراجم حرف العين المتلوة بالألف (عاصم -عايذ) وجزء مصور من النسخة المخطوطة يضم التراجم التي بين عبد الله بن عمران وعبد الله بن قيس الأشعري. وها هو ذا المجمع قد دفع للمطبعة جزأين يضمان تراجم العبادلة.

كما أنه لا يزال بصدد السعي الدؤوب والعمل الجاد في سبيل استكمال هذه الموسوعة التاريخية العظيمة التي تمتد في المكان امتداد بلاد الشام من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، ثم تجاوز ذلك لتكون على امتداد الوطن الإسلامي والثقافة الإسلامية. وهي تنفسح اتساعاً في الزمان لتلمس أطرافاً من تاريخ الجاهلية، وتمضي لتكون تاريخاً للسيرة النبوية، والعصر الراشدي والأموي والعباسي والدويلات التي استقلت فيما بعد حتى وفاة ابن عساكر في أواخر القرن السادس الهجري سنة 571هـ.

وهي موسوعة تفهم التاريخ فهماً عميقاً فلا تقف عند الأحداث والوقائع وحدها بل تتناول روح التاريخ حينما تقدم المادة الأولية الغنية لرصد الحركة الحضارية ديناً وشريعة وثقافة وفكراً.

هذا ما دفع المجمع فتبنى نشر ذلك التاريخ العظيم الذي يعد بحق كنزاً من كنوز التراث نظر المجمعيون من خلاله إلى تجديد كتابة التاريخ العربي والإسلامي. ونحن نتلهف أن يمضي أولو الأمر قدماً بسعي حثيث لاستكمال هذه الموسوعة، وأن يستردفوا للعمل لفيفاً من الباحثين الخلَّص ليذللوا الصعوبات التي تعترض في الطريق، طريق كل غاية عظيمة وكيف لا يكون كذلك وأصل الكتاب المخطوط يقع في 800 جزء

وكل عشرة أجزاء تؤلف مجلدة واحدة فهو إذن في ثمانين مجلدة ضخمة، أفليس هو عملاً تنوء به العصبة أولو القوة من أصحاب الهمم الكبيرة فضلاً عن أن الكتاب لا يقاس بالصفحات بمقدار ما يحسب بالمضمون وبالمادة الغنية الصادرة عن رجل مليء علماً وعبقرية مثل الحافظ ابن عساكر.

ولقد اعتمد المشرفون على تحقيق تاريخ مدينة دمشق أصولاً مخطوطة فيها ما فيها من صعوبة ومشقة، إذ لم يكن بين الأصول أصل واحد كامل، وإنما تحصل لهم نسخ ناقصة وأجزاء شتى.

أقدم هذه النسخ مخطوطة الأزهر الشريف التي أنزلت من بين الأصول منزلة الأم ذلك أنها بخط ابن المؤلف القاسم بن علي العالم الحافظ الذي أخرج للناس كتاب أبيه مضبوطاً مجوداً. ثم نسخة بخط الحافظ البرزالي وهي مضطربة الأوراق.

وبحث المجمع عن أجزاء الكتاب في مكتبات العالم فكان أن تحصَّل لديه نسخة من المغرب ونسخة من مكتبة أحمد الثالث في استانبول وأجزاء متفرقة من تونس والهند ولندن وكامبردج وغيرها. هذا بالإضافة إلى نسختين دار الكتب الوطنية الظاهرية الأولى من وقف سليمان باشا العظم وهي أوسع من الثانية وأقل نقصاً، والثانية من وقف أسعد باشا على مدرسة والده اسماعيل باشا بالخياطين بدمشق وهي مأخوذة فيما يبدو من الأولى وفرع عنها.

طرح بعض أولي الرأي أن يطبع الأصل المخطوط طباعة تصويرية مشفوعة بمقدمات مناسبة متلوة بملاحظات ملائمة تفيد الدارسين

وتنفعهم نفعاً مختلفاً على قدر رسوخ أقدامهم في البحث والعلم والدراية، وربما كان هذا السبب في أن أصدر المجمع الجزء المصور الذي سأتحدث عنه بعد وعن مصورات المجمع.

أما طريقة التحقيق وأسلوبه فندعها قائلين إنه قد أعطيت القوس باريها..

* * *

ولئن كان أمر ابن عساكر قد ملأ المجمع وشغل المجمعيين فإنه زهرة وإن تكن فريدة في البستان الرحيب ففيه الكثير سواها والعديد غيرها متشابهاً وغير متشابه يفوح شذاه عابقاً ويتضوع عرفه فواحاً. إنه لابد من وقفة قصيرة تلقي نظرة متأملة على ذلك البستان النضير.

ولنبدأ بكتاب (المعاصرون) الذي صدر في السنة الفائتة للأستاذ الرئيس محمد كرد علي، ذلك الرجل الذي لا يزال فضله متجسداً حياً من خلال حياة المجمع وأعماله.. خلف الأستاذ الكبير كتابه «المعاصرون» جزازات متناثرة[2] بقيت عند أسرته ولما يفرغ بعد من تنقيحها وتحريرها حينما ألم به داعي المنون فلحق بربه مغفوراً له، ولكنها وإن كانت تحتاج إلى تنظيم وترتيب أنها كحبات اللؤلؤ الثمينة لا ينقصها سوى ناظم.

ترجم الأستاذ كرد علي في كتابه المعاصرون لطائفة ممن اتصلت أسبابه بأسبابهم من علماء البلاد العربية وأدبائها ومن المستشرقين، كان منهم من ربطته بهم صداقة راسخة وآخرون لقيهم خلال المؤتمرات والندوات العلمية وطائفة واصلهم عن طريق المراسلات والمكاتبات.

والكتاب غنم عظيم للمهتمين بتاريخ النهضة العربية وأعلامها خصوصاً أن التراجم فيه تنساب من تحت قلم سيال يمج مع المداد مدداً من العذوبة والبلاغة والصدق والأمانة، يعطي الرجال حقوقهم وينزلهم منازلهم ويقول فيهم ما يقول بصراحة غير ممجوجة ويمدح من يستحق المدح ببيان لا يشوبه التكلف ولا التعمل حتى ليغنيك في سطور معدودة عن كلام طويل.. يعطي فكرة عن أ هم النقاط في حياة صاحب الترجمة ويتحدث عن صفاته الخلقية وعن إنتاجه العلمي واهتماماته ثم يعرّج -إن كان شاعراً- على شاعريته فيرى فيها رأيه وينتقي من شعره، وهو بهذا موفق الاختيار يورد كل طريف.. فإذا به يشد القارئ إليه فيترنم معه ويطرب حتى جاء الكتاب نزهة أدبية يتسلى به إلى جانب الفائدة العلمية من أراد حين يسأم من متاعب يومه فيقضي مع الأستاذ الرئيس أوقاتاً ممتعة لطيفة.

وكتاب المعاصرون يذكرنا بكتاب شبيه له كان قد أخرجه المؤلف سنة 1950 وهو كنوز الأجداد وسار فيه على الخطة نفسها من حيث الترجمة والمنهج، إلا أن كنوز الأجداد تتناول أعلاماً غابرين وعلماء سابقين كابن قتيبة والجاحظ والحريري والأصبهاني في حين يصور الكتاب الأول مؤلفه وسط ثلة من أصحابه وأصدقائه ونظرائه.

على أن لـ «المعاصرون» ميزة هي الطراوة في التركيب والطلاوة في الأسلوب كأن صاحبه يتحدث إليك وقد وضع التكلف فجاء نفسه بسيطاً ولكن بساطته بساطة الأديب الذي استحكم أدبه فكان ملء

نفسه. وليس معنى هذا أننا ننفي لكنوز الأجداد تلك الحلاوة وهاتيك الطلاوة، كلا بل إنه يمتح فيه عن أسلوب آخر وعبارات أخرى وتراكيب تفرضها عليه تلك الشخصيات الخالدة.

× × ×

ومن الكتب التراثية اللطيفة التي أصدرها المجمع حديثاً كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية لمحمد بن طولون الصالحي حققه العلامة الشيخ أحمد محمد دهمان، وهو كما يشير اسمه يختص بصالحية دمشق فيتحدث عن بدء إنشائها بعد سنة 550 هجرية على أيدي المهاجرين الصالحين[3] الذين فروا من ظلم الإفرنج في فلسطين واستوطنوا سفوح قاسيون فعمروه وأسسوه على التقوى والعلم من أول يوم نزلوا. واستفاض حديث ابن طولون فوصف الصالحية وصفاً دقيقاً ذاكراً أنهارها وطبيعتها، مساجدها ومدارسها، أوقافها وجراياتها، زواياها وتربها، بساتينها ومنتوجاتها ولم يدع شيئاً يتصل بالصالحية من قريب أو بعيد إلا وذكره على أحسن وجه. ثم عرّج على علمائها فترجم لهم واحداً واحداً حتى أولئك الذين زاروا الصالحية في أيام معدودات وعبروا بها. وختم عمله ذاك بذكر أربعين حديثاً مسلسلة برواية علماء الصالحية الذين اشتهروا كثيراً بعلم الحديث وبرعوا فيه وأتقنوه مشايخ وشيخات.

تصدرت الكتاب مقدمة مطولة عن قاسيون ومكانته المقدسة وشرفه في الأمكنة وعن أولئك المهاجرين الصالحين ومعاناتهم في سبيل الحق والخير والعلم، وختم بفهارس مفصلة وافية.

* * *

وقبل القلائد طبع المجمع (تاريخ أبي زرعة) وهو سفر عظيم في التاريخ الإسلامي يقع في 1096 صفحة وتأتي أهميته في أنه أحد المصادر المهمة في التاريخ4 والرجال فضلاً عن أنه من أهم مصادر الحافظ ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق. صاحب المصنف عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله النصري أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة 281 هجرية، وهو من كبار العلماء المدققين. بدأ كتابه بذكر ما يتعلق بسيرة النبي (وتطرق إلى نسبه العريق وصفاته الكريمة ثم بذكر أزواجه وعددهن والخلاف في ذلك مع بعض أخبارهن وانتقل إلى سير الخلفاء الراشدين من بعده حتى إذا أتي إلى عصر بني أمية قدم لنا قائمة بأسماء الخلفاء وتاريخ خلافة كل منهم ومقدارها دون تفصيل إلا أنه توقف قليلاً عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه. ثم قدم قائمة أخرى كاملة بأسماء الخلفاء العباسيين وتنتهي بهارون الرشيد المتوفى سنة 193هـ وهي مقتضبة وأكثر إيجازاً من التي قبلها، لا تتعدى ذكر اسم الخليفة وتاريخ خلافته ومدتها. ويبدو أن أبا زرعة يحب القوائم فهو يسلسل قائمة جديدة بقضاة مدينة دمشق منذ الفتح حتى نهاية القرن الثاني الهجري ويلحق بها قائمتين لقضاة فلسطين ولقضاة مرو وهما ناقصتان.

وهناك قوائم أخرى بأسماء الصحابة النقباء الأنصار وبأسماء الأعلام المعروفين بالكنى وبالعكس. وينتقل أبو زرعة إلى أخبار الصحابي عبد الله بن بسر المازني ثم يتحدث عن الوقائع التي جرت في الشام زمن

خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ويبين من توفي بالشام من الصحابة في ذلك الوقت ومن التابعين وتابعي التابعين مع ذكر وفيات بعض شيوخه.

في الكتاب معلومات حضارية قيمة ونصوص فريدة في مختلف الشؤون، إلا إنها متناثرة في صفحات الكتاب لا يجمعها رابط، كذكره بعض الوظائف في القرن الهجري الأول ولباس كثير من العلماء وأصول الرواية وعلاقة العلماء ببعضهم وغير ذلك. فهو كتاب قيم كما نرى يعتد به وتأتي أهميته من أنه يحوي معلومات فريدة في القرنين الأول والثاني الهجريين توضح بعض النواحي عن الحياة الثقافية والاجتماعية والإدارية آنذاك بالإضافة إلى ما ذكرنا ومع أن ما ورد في تاريخ أبي زرعة قد ورد في كتب أخرى إلا أن هذا التاريخ مصدر موثوق فضلاً عن أن تكرار هذه المعلومات يرفع من قيمتها لأنها تصبح بمنزلة الأخبار المتواترة التي يمكن القطع بصحتها.

ويمثل هذا التاريخ الأثر المهم الوحيد الباقي من آثار أبي زرعة الدمشقي، يحمل معلومات كثيرة تتعلق بمؤلفه وبعلماء الشام الذين أسهموا أيما إسهام في الحركة العلمية وخاصة في مجالات الحديث وعلم الرجال فليس بدعاً بعد هذا أن ينقل عنه علماء كثيرون ويقتبسوا من نوره. ويضم تاريخ أبي زرعة مجموعة كبيرة من الأسانيد تتجاوز خمسين ومائتين وألفي سند ولأول مرة يجتمع عندنا مثل هذا العدد من أسانيد الشاميين، ودراسة هذه الأسانيد تبين مكثري الروايات من مقليها وتدلنا على كبار العلماء والمحدثين والرواة من صغارهم.

* * *

من الكتب المهمة التي تؤثر للمجمع كتاب (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف) لأبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري، يدرك المتأمل فيه والمتصفح له أنه عمل امتلأ علماً وظرف حشي ظرفاً، يجمع إلى ضخامة الموضوع وفرة الشواهد.

صدر القسم الأول من هذا الكتاب ويضم في الأبواب الثلاثة الأولى[5] منه كلاماً في قبح التصحيف وبشاعته ونكده ومن ابتلي به ونوادر من التصحيف أضحكت من قائليها ثم يقسم العلماء المشهورين إلى طائفتين، بصرية وكوفية ويذكر أوهام كل عالم باسمه وما وقع فيه من أغلاط. ثم يتعرض لطائفة ثالثة تضم أقواماً شتى. وبعد ذلك يستعرض ما يمكن أن يصحف لشعراء معينين كامرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى وغيرهم مما جاء في كتاب الحماسة. حتى إذا استوفى هذا تناول ما يمكن أن يشكل من أيام العرب وأسماء الفرسان والأنساب والأماكن وغير ذلك.

حفلت مقدمة المحقق بأشياء كثيرة أولها ترجمة للمؤلف أبي أحمد العسكري مع ذكر لمؤلفاته التي بلغت اثني عشر مؤلفاً، وبعدها جرى الحديث عن تقسيم الناس إلى طبقات ثلاث: الجهلة والعوام والخواص، ولما بسط الكلام رأى أن الجهلة لا تستحق أية عناية أو محاولة للإصلاح فإن العلم كفيل بالقضاء عليها إذا تيسر لهم الحصول عليه، وأورد قول الجاحظ: وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم، ولم يبلغوا منزلة الخاصة منا ثم

حدد معنى اصطلاح التصحيف عندما تعرض لذكر الخواص فقال: إلا أن هناك نوعاً آخر من الغلط والوهم يتعرض له العلماء والخواص من القراء والمحدثين وأصحاب الأخبار واللغة في محاضراتهم وحلقاتهم للتدريس والإملاء وقد اصطلح على تسميته التصحيف، ومنشؤه التباس الحروف وإهمال الضبط في الكتابة العربية بحيث لا يمكن لأحد مهما تقدم في العلم أن يعتمد على قراءاته في الصحف المكتوبة ويستغني عن السماع من أفواه الثقات.

ونقل المحقق عن حمزة الأصفهاني أن سبب وقوع التصحيف في كتابة العرب هو وجود حروف متشابهة في صورة واحدة هي الباء والتاء والثاء والياء والنون.

وبعد أن عرف التصحيف ناقلاً عن الخليل والمعري والجاحظ قال: إن الكلام في التصحيف لا يخلو منه أي كتاب في الأدب واللغة وتراجم البلغاء والنحاة وخص بالذكر ثلاثة كتب ألفت في هذا، ثانيها هذا الكتاب وقبله (التنبيه على حدوث التصحيف) لحمزة الأصفهاني المتوفى قبل سنة 360هـ وبعده (التصحيف في ما تلحن فيه الخاصة) لأبي هلال العسكري المتوفى سنة 395هـ.

فالكتاب كما نرى يتطرق لموضوع عظيم اهتم له المتقدمون من أصحاب اللغة والأدب خدمة للغة العربية المقدسة وهو موضوع لا يقتدر عليه إلا خواص الخواص ممن أنفقوا عمرهم في العلم والتعلم والضبط. ولئن تلقينا القسم الأول منه متلهفين فإنا على انتظار قسمه الثاني على مثل ذلك التلهف.

* * *

وعني المجمع خلال إخراجه لكتب التراث بالشعر فأصدر دواوين ومجموعات شعرية مختلفة ويبدو من خلال قائمة ما نشر أنه كان يريد إخراج النادر العزيز الذي غفلت عنه المؤسسات الثقافية أو المحققون فطبع مجموعات شعرية -وإن تكن قليلة- إلا أنها من الأهمية بمكان كشعر ابن هرمة القرشي آخر من يحتج بشعره من الشعراء وشعر دعبل بن علي الخزاعي وشعر الراعي النميري وشعر ابن أحمر الباهلي وغالب هذه الأشعار مبثوثة في كتب الأدب جمعها الجامعون وأخرجوها عملاً محققاً متقناً بعد عمل طويل.

إلى جانب الشعر المجموع دواوين توخى المجمع أنها تغني المكتبة العربية كديوان ذي الرمة وديوان ابن الخياط وديوان الخالديين وديوان ابن حيوس وديوان ابن عنين وديوان طرفة وديوان الصاحب الشرف الأنصاري وديوان ابن أبي حصينة وديوان الأبيوردي. واعترافاً من المجمع بفضل رئيسه الأسبق الأستاذ الشاعر المرحوم خليل مردم عمد إلى نشر ديوانه مع مقدمة تنوه به، وهاهو ذا اليوم يكرم أحد أعضائه البارزين فيدفع إلى المطبعة ديوان المرحوم شفيق جبري شاعر الشام مضيفاً إلى المكتبة الشعرية مجموعة لطيفة ممتعة.

وإلى جانب الأشعار والدواوين نوع ثالث من الشعر هو المجموعات الشعرية كمثل خريدة القصر والاختيارين، وكمثل شرح مفضليات الضبي التي يمكن أن تكون عملاً مشتركاً بين الاختيار الشعري واللغة.

أما خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني الكاتب فهي جمهرة أشعار حافلة[6] تضم شعراء العالم الإسلامي ولا تقتصر على العرب وتمتد في الزمان فيما بعد المائة الخامسة إلى سنة 572هـ. أنفق صاحبها في جمعها حقبة من الزمن طويلة واستعان عليها بأسفاره وصلاته ومكانته من السلطان فلقي العديد من العلماء والمحدثين والرواة ووقف على جملة جيدة من الدواوين واتصل بكثير من شعراء عصره وأدبائه فسمع منهم واستكتبهم.

تنقسم الخريدة إلى أربعة أقسام: قسم العراق، قسم العجم وفارس وخراسان، وقسم الشام، وقسم مصر وصقلية والمغرب وبلاد الأندلس. وهي لا تضم شعر الشعراء فحسب بل وشعر الكتاب والفقهاء والمحدثين وأبناء الأجناد، بل وتورد مختارات من النثر الذي يعبر عن أسلوب العصر.

وتأتي أهمية كتاب الاختيارين للأخفش الأصغر المتوفى سنة 315هـ من أنه كتاب مصطفى مختار من كتابين عظيمين أولهما (المفضليات) للضبي ذاك العالم الذي كلفه الخليفة أبو جعفر المنصور أن يختار أجود قصائد المقلين ليدرب بها ابنه ولي العهد المهدي ويعلمه رائع الشعر وخالصه، وثانيهما (الأصمعيات) للأصمعي قصائد انتقاها بإشارة منه فاختار له من عيون الشعر القديم... فهما كتابان عظيمان من صنعة عالمين كبيرين لتعليم طالبين يتهيئان ليكونا خليفتين يحكمان الدنيا وأي دنيا تلك التي كانت زمن المنصور والرشيد! وإذا جاء اختيار الأخفش

الأَصغر بعدئذ من هذين الكتابين الموجودين فهو اختيار لباب اللباب وصفوة الصفوة.

ولم تكن اختيارات الأخفش الأصغر تورد القصيد المقطعات دون عناية فلقد كان هم صاحبها أن يشرح الغامض من العبارات ويوضح العويص من الكلمات ويعلق على المبهمات فجاء كتاباً شعرياً لغوياً أدبياً وهذا ما يهتم به المجمع من خلال عنايته باللغة خاصة.

نوع أخير من كتب الشعر التي يهتم بها المجمع هو ذاك الشعر الذي يغلب عليه الغريب ككتاب تفسير أرجوزة أبي نواس في تقريظ الفضل بن الربيع للغوي العبقري ابن جني. كان هذا الكتاب قد طبع سنة 1966 ثم أعاد المجمع طباعته مؤخراً سنة 1980 بعد أن أعاد فيه محققه النظر على ضوء مخطوطة أخرى عثر عليها في المتحف البريطاني واعتماداً على مخطوطتي المدينة المنورة التي تشير إليهما مقدمة الكتاب.

والأرجوزة النواسية هذه ضرب لطيف مما حفل به تراثنا العظيم، وأبو نواس قد آثر فيها الغريب مجارياً رجز الأوائل القدماء. ومع أنها ليست بخير شعره إلا أنها من أجزل شعره الجاد وأشده إعرابية وأحفله بالغريب، وهذا ما حدا إمام اللغة ابن جني إلى الاهتمام بها وشرحها خصوصاً أنها كانت في عصر ابن جني بعض ما يتمرس به شداة اللغة من الشبان المثقفين لتستحكم به ملكاتهم وينمو حسهم اللغوي ويقوي لسانهم، إضافة إلى أن تفسير هذه القصيدة قد اشتمل على اللغة والإعراب والشعر والمعنى والنظير والعروض والتصريف والاشتقاق، وعلى شيء من علم القوافي. ومن هنا اعتنى بها عناية خاصة.

* * *

ولئن كانت الكتب المجمعية التراثية تنشعب ذاهبة في أكثر من طريق لتغطية علوم مختلفة وفنون متعددة من تاريخ ولغة وأدب وأصول ورحلات وجغرافية فإن مجلة المجمع هي بدورها تتحمل نصيبها في إحياء التراث والإسهام بنشره وتحقيقه ونقده. ففي تلك المجلة الغراء التي تصدر مع فصول السنة الأربعة ترى كل حين تحقيقاً لرسالة مخطوطة أو إشارة لمخطوط أو دراسة تراثية.. وربما ترى بين أعدادها قوائم لأسماء مخطوطات منثورة في بلدان العالم طالتها يد جوال عربي فبعث بها يبتغي إفادة الدارسين وعونهم.

فمما نشرته عن رسائل تراثية: أسماء مؤلفات ابن تيمية لابن قيم الجوزية، وتاريخ الخلفاء لمحمد بن يزيد وهو تاريخ مختصر جداً للسيرة النبوية والخلفاء الراشدين والأمويين وبعض العباسيين ويحفل على صغر حجمه بمعلومات غزيرة ملخصة، ورسالة بعنوان سؤال في يزيد بن معاوية لابن تيمية، وصحيفة همام بن منبه أقدم تدوين في الحديث النبوي وقرة العيون في أخبار باب جيرون لابن طولون الصالحي وغير ذلك كثير ولا تزال المجلة الأصيلة توالي نشر الكنوز ما تتابع صدورها، وتهتم بالتراث وتضعه في الصدر الأول من الأهمية.

* * *

ومن عناية مجمع اللغة العربية بالتراث الكريم أنه اهتم بالمخطوطات النفيسة التي تحتوي عليها دار الكتب الوطنية الظاهرية، فصنع لها فهارس مخطوطات بحسب أنواعها المختلفة. ومن هنا كثرت كتب الفهارس

المختصة التي نيف عددها على خمسة عشر فهرساً لمخطوطات القرآن الكريم والحديث الشريف والتاريخ والجغرافيا وعلم الهيئة والفقه الشافعي والحنفي والتصوف والشعر والرياضيات والفلسفة وعلم العربية بفنونه المختلفة. بل ونشر أسماء بعض المخطوطات في غير مدينة دمشق كالمنتخب من مخطوطات المدينة المنورة، وقسماً مما في بعض مكتبات إنكلترة وغيرها مما طالته أيدي الباحثين. ولئن بقي بعض من المخطوطات في الظاهرية لم يفهرس في كتب، إن النية عازمة على استكمال ذلك.

سارت هذه الفهارس على خطة سديدة تغني الباحث وتنفعه ولو كان بعيداً قصياً فهي تتناول كل مخطوط فتصف شكله وحجمه وقياسه وتذكر عدد أوراقه وعدد السطور في كل ورقة وتورد بعض جمل من مبتدئه ومنتهاه وتشير إلى أسماء الناسخين والتملكات التي عليه ثم تذكر رقمه وغير ذلك مما يراه المفهرس مفيداً ومما ينسجم مع الخطة العامة التي تسير عليها لجنة المخطوطات وإحياء التراث لتكون أعمال الفهرسة كلها على نسق واحد، منطبعة بطابع واحد. لا يعني هذا أنك لن ترى خلافاً في العمل، إن الفروق الفردية سمة الله في خلقه ولابد أن تكون.

إنها لفتة كريمة تحمد للمجمع وتؤكد حرصه على تعميم الفائدة من المخطوطات وإيصالها إلى كل يد ذات نفع وعطاء نفعاً للعلم وخدمة له وقياماً بالأمانة الملقاة عليه والتي حملها فأحسن حملها وأداها فأتقن أداءها، وإلا لكانت موءودة على الرفوف ليست في عالم الأحياء.

* * *

ومن اهتمام المجمع بالتراث أنه عمد إلى تصوير بعض المخطوطات كما هي وإخراجها مصدرة بمقدمة دون تحقيق. كان ذلك تجربة لها ما يبررها، وقد أشرت عند الكلام على ابن عساكر إلى مصورة جزء من تاريخ مدينة دمشق (من عبد الله بن عمران إلى عبد الله بن قيس الأشعري) وقد ذكر في المقدمة الأسباب التي دفعت القائمين على شؤون المجمع إلى نشر المصورات: «ويرجو المجمع وهو يلبي الحاجة الماسة إلى تداول كتب التراث أن يكون هذا الأسلوب في النشر سبباً من أسباب الإقبال على التحقيق وتيسير وسائله بين أيدي المهتمين بالثقافة العربية دراسة وتحقيقاً، وهو بعد ذلك وسيلة من أفضل الوسائل للتعرف إلى طريقة الكتابة العربية وما التزمه المؤلفون والنساخ العرب في مؤلفاتهم وكتبهم من ضروب النقط والشكل لضبط النصوص وسلامتها من التحريف والتصحيف مما يمهد أمام الناشئة العربية صلة بكتب التراث أوثق وأشمل»[7].

وكان المجمع قد أصدر من قبل مصورة عن مخطوطة الجزء الأول من ديوان الفرزدق تمهد لها مقدمة رصينة تصفها وتنبئ بجليل شأنها[8]. كان ذاك أول عمل تصويري للمجمع أتقن إخراجه وأولاه اهتماماً خاصاً. ثم سكت عن التصوير حتى كان الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على ولادة محمد كرد علي فطرحت بين الأيدي بهذه المناسبة مصورات على المجلد الأول والثاني والعشرين من مجلة المجمع التي بلغ عدد مجلداتها إلى اليوم ستة وخمسين مجلداً، وما هذا إلا دعماً لفكرة التصوير وميلاً

في تحقيق رغبة الكثيرين الذين يبتغون اقتناء المجلة التي نفد الكثير من أعدادها.

وآخر ما نشر المجمع على طريقة التصوير مخطوطة قاموس الأطبا وناموس الألبا في جزأين لمدين بن عبد الرحمن القوصوني المصري سار فيه على حروف المعجم وتعرض لذكر كثير من الأمراض والنباتات والمواد التي تفيد في العلاجات وغير ذلك، والخط الذي كتب فيه الجزء الأول يختلف عنه في الجزء الثاني ولكنها على كل حال نسخة في جزأيها معتنى بها واضحة موشاة بالحمرة.

* * *

بعد كل هذا العرض السريع لابد لنا أن نتساءل متوقفين وفي أنفسنا شيء كبير من مسؤولية: أين هو موضع التراث العظيم من المعاصرة؟ وهل نحن اليوم ننتفع الانتفاع الحق بهذا الذخر الذي اجتهد أسلافنا العظماء أن يخلفوه لنا؟ كيف يمكن لنا أن نفتخر بلغتنا وعروبتنا وأصالتنا ونحن نضع هذا الإرث على الرفوف ونقطع صلتنا به أو نجعلها صلة واهية واهنة... الجهد الذي يقوم به بعض الدارسين جهد مشكور معترف به، أفيكفي هذا ويغني، أيجزئ ويفي تجاه ما عندنا من كنوز؟ إن على الأمة الأصيلة التي تبتغي مكانة متميزة بين شعوب الأرض أن تحافظ على أصلها، وليس الحفاظ على الأصل كلام أجوف نردده في كلامنا وفي كتبنا بعبارات جوفاء لا تعني شيئاً. كثيراً ما نقول ونعيد: إننا صانعو حضارة مشرفة أسدت إلى الإنسانية خدمات جلى ونستشهد بكلام فلان وفلان من الغربيين ثم تنتهي المشكلة ولا نسأل أنفسنا وماذا صنعنا

نحن. يجب أن نسأل أنفسنا سؤالاً جاداً: كيف يمكن أن نستفيد الفائدة الكاملة مما تركه علماء الأمة وأحبارها ونوليه أهميته ونميز الغثاء منه من الثمين.. كيف تنعكس عظمة أمتنا فينا فنبدع مثلهم ونسير على خطاهم ونكون أمة عظيمة صانعة أمجاد.

أهم شيء في تراثنا لغتنا الأصيلة المعجزة التي انتشرت مع الفتح في الشرق والغرب، يجب أن يتقن الناشئة هذه اللغة ويتمكنوا منها أي تمكن ويحسنوا التعبير بها بيسر وسهولة.. لا يكفي أن تكون مناهجنا المدرسية عربية بل يجب أن تكون عريقة أصيلة كان التعليم عندنا ذات يوم أعجمياً فلما قامت الثورة العربية تولى مجمع دمشق أمر التعريب وما كلية الطب عندنا إلا شاهد صدق على ذلك ونجح في مهمته نجاحاً باهراً وما ذلك إلا لحماسته من جهة ولأصالة اللغة العبقرية من جهة أخرى. وإلى جانب هذه الخطوة المجمعية الحميدة كان المجمع يتولى تقويم الاعوجاج اللغوي من خلال مهاجمة بعض الكتبة الذين ينشرون في الصحف والمجلات فيتتبع أخطاءهم بروح من الغيرة الواضحة.. وأتت هذه الطريقة أكلها ونفعت حتى جعل الناشرون يفكرون قبل أن يقدموا على الكتابة. ونحن نأمل اليوم أن يتابع مجمع اللغة العربية أعماله كما عودنا في الطليعة حافظاً للغة راعياً لها يحمل الشعلة النيرة التي يمشي في ركابها أولو العلم والمعرفة، وكأن لبيداً رضي الله عنه يقول فيه:

أنا إذا التقت الجامع لم يزل منا لزازُ عظيمة جشامها
من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سُنَّة وإمامها

الهوامش:

1 ـ انظر مقدمات الأجزاء التي أخرجها المجمع. وانظر أيضاً الكتابين اللذين أصدرتهما وزارة التعليم العالي بمناسبة مهرجان ابن عساكر سنة 1979.

2 ـ انظر مقدمة الكتاب.

3 ـ انظر مقدمة الكتاب.

4 ـ انظر مقدمة الكتاب.

5 ـ انظر مقدمة الكتاب.

6 ـ انظر مقدمة الكتاب.

7 ـ انظر مقدمة الكتاب.

8 ـ انظر مقدمة الكتاب